من بحوث أسبوع المدى الرابع

مثقفو الخارج جزء من الثقافة العراقية الواحدة

داود امين

من جلسات الاسبوع

يشكل عدد المثقفين العراقيين المقيمين خارج الوطن، نسبة كبيرة، اذا ما قورن باجمالي عددهم العام، كما ان حجم انتاجهم الابداعي كبير وواسع، مقارنة بالانتاج العام لمثقفي العراق، حتى بات الحديث (مقبولا) عن ما يسمى بـ (ثقافة في الداخل.. واخرى في الخارج) او اصبح الكلام مألوفا عن (مثقفي الداخل ومثقفي الخارج) .

أن هؤلاء المبدعين العراقيين الموجودين خارج الوطن، يتوزعون الآن على معظم قارات العالم، ويتركزون في اوربا بشكل خاص (في انكلترا و هولندا.. والبلدان الاسكندنافية تحديدا) ولهذا التركيز اسبابه ودوافعه التي لا مجال لذكرها الآن، ولكن من المهم معرفة متى جاء هؤلاء المثقفون العراقيون للخارج، وما هي ظروفهم خارج وطنهم ؟ وهل هناك مسعى للاستفادة من هذا الوجود الكثيف؟

الهجرة مفردة جديدة في القاموس العراقي

أعتقد ان مسالة الهجرة، ومغادرة الوطن، والعيش في وطن بديل، هي موضوع جديد على العراقيين فتاريخ العراق البعيد والقريب لا يشير لهجرات معروفة لبلدان مجاورة للعراق، ناهيك عن بلدان بعيدة عنه، واذا كانت للسوريين واللبنانيين جاليات عريقة في الولايات المتحدة وامريكا اللاتينية وافريقيا ومنذ قرون، بحيث اصبح السوري (كارلوس منعم) رئيسا للارجنتين وهو من قرية (يبرود) المحاذية لدمشق، فليس هناك ما يشير لهجرة مماثلة او وجود جالية عراقية في بلد ما في العالم، واعتقد ان السبب الرئيس في بقاء العراقيين في وطنهم يعود لغنى العراق وتوفر معظم الخيرات فيه من انهار وثروات زراعية وحيوانية، مما وفر وسائل العيش الاساسية لسكانه، وهذا بدوره خلق الجوانب النفسية التي ميزت العراقيين ومنها التمسك بارضهم والالتصاق بها وعدم القدرة على مغادرتها، حتى ان الانتقال من محافظة لاخرى داخل العراق ، كان امرا صعبا والى فترة قريبة، كما خلق لدى العراقيين زهدا في الجوانب المادية واهتماما ربما متميزا بالجوانب الروحية، التي لاتزال تشد العراقي وتثقل خطواته كلما فكر بمغادرة وطنه او محل سكناه.

لقد كان العراق طوال تاريخه مكانا لأحتضان المهاجرين فقد مرت اقوام كثيرة على هذه الارض، واندمجت بشعبها واصبحت بعد ان ذابت جزءاً من نسيج هذا الشعب، لذلك اؤكد ان وجودا ملموسا للعراقيين في الخارج لم يكن له اي اثر قبل نصف قرن من الزمن .. واذا كنت اتحدث عن وجود عراقي عام فما بالك بوجود مثقفين عراقيين وهم شريحة صغيرة اذا ما قيسوا بالوجود العام، اذن لنحاول البحث في الخمسين سنة الماضية لنتلمس هجرة المثقفين اسبابها ودوافعها .

هجرة المثقفين

أعتقد ان التحول الجذري الذي احدثته ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨، رغم حدته، لم يسجل هجرة ملحوظة للمثقفين العراقيين خارج وطنهم، اذ ان المثقفين العراقيين ارتبطوا تاريخيا بالحركة الوطنية والتقدمية العراقية- وباليسار العراقي تحديدا –وكانت ثورة تموز بشعاراتها واهدافها، وما احدثته من تحول، خصوصا في اشهرها الاولى، استجابة لطموحات وامالي هؤلاء المثقفين، رغم خيبة امل بعضهم، من نتائجها فيما بعد، لذلك نستطيع القول ان عددا قليلا ربما لايتجاوز اصابع اليدين من المثقفين العراقيين خرجوا بعد ثورة الرابع عشر من تموز وبسببها، واقاموا في المنفى، ويمكن اعتبار حالة الروائي العراقي الكبير(غائب طعمة فرمان) الذي اقام في المنفى منذ عام ١٩٥٧ حالة نادرة ، ولا علاقة لها بثورة تموز ونتائجها .

ولكن العلامة الفارقة في موضوعة هجرة او تهجير المثقفين العراقيين يمكن تسجيلها مع القرار الذي اتخذه الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري بمغادرة العراق عام ١٩٦١ والاقامة في براغ، هربا من التصفية الجسدية ، بعد ان اختلف مع حاكم العراق حين ذاك (عبد الكريم قاسم)، فهذا القرار كان البداية الحقيقية للهجرات والتهجيرات اللاحقة لعشرات ومئات المثقفين العراقيين، وقد فتح الباب على مصراعيه لان تمارس السلطة حريتها، عندما يختلف المثقف معها، في حرمانه من حق المواطنة، ومن حق العيش بين اهله ووطنه بسلام.!!

أذ لم تمض سوى سنتين على ذلك النفي الظالم للجواهري، حتى حلت كارثة ٨ شباط الاسود عام ١٩٦٣، والتي دفعت عددا كبيرا من المثقفين العراقيين الذين كانوا خارج الوطن لاسباب مختلفة للبقاء خارجه، ربما لعقود لاحقة، بعد ان سحبت سلطة الانقلاب الجنسية العراقية عنهم ، معتبرة اياهم غير عراقيين .هذا بالاضافة لعشرات المثقفين العراقيين الاخرين الذين استطاعوا مغادرة الوطن بعد الانقلاب بأشهر او سنين مستخدمين مختلف الاعذار للهروب من السلطة، في حين غصت المعتقلات بالمئات منهم. كما هاجر عدد من المثقفين العراقيين بعد مجيء البعث مجددا إلى السلطة عام ١٩٦٨، ولكن اثر هؤلاء المثقفين ، لم يكن محسوسا في الواقع الثقافي العراقي ولم يؤسسوا لشيء ثقافي واضح في الخارج، اذ كانت مواقفهم ذات طابع فردي غير مؤثر.

الهجرة الاوسع للمثقفين العراقيين

يمكن اعتبار نهاية عام ١٩٧٨ وطوال عام ١٩٧٩ المؤشر الاكثر وضوحا للهجرة الواسعة للمثقفين العراقيين، ومن مختلف الاختصاصات ومن جميع مدن العراق وعاصمته، ويعود السبب الرئيس لهذه الهجرة الواسعة للانفراط الوشيك للتحالف الجبهوي بين حزب البعث الحاكم والحزب الشيوعي العراقي ، والذي بدات ملامحه تظهر اواخر عام ١٩٧٨ وانفرط بالفعل في نيسان عام ١٩٧٩ ، باغلاق جريدة الحزب المركزية (طريق الشعب) ومطاردة واعتقال قادة الحزب واعضائه واغلاق مقراته في بغداد والمحافظات ومصادرة مطابعه وبناياته وبقية املاكه!!

وقد يتساءل البعض عن العلاقة بين انفراط التحالف بين حزبين سياسيين وبين هجرة المثقفين العراقيين، وبذلك الزخم الواسع، وبمثل ذاك الوضوح؟ وللاجابة عن سؤال مشروع كهذا من الضروري الاشارة إلى ان سلطة البعث وبالرغم من استخدامها (العصا والجزرة) ولاكثر من عقد من السنين منذ استحواذها على السلطة عام ١٩٦٨، لم تستطع ان تكسب جميع او معظم مثقفي العراق ومبدعيه، بل ظل المئات من هؤلاء محسوبين على اليسار العراقي ، سواء بالانضواء داخل صفوفه كأعضاء ، او البقاء على ضفافه، او في خانة (غير البعثيين) في اقل تقدير. وهؤلاء المبدعون عمل الكثير منهم في صحافة الحزب الشيوعي العراقي، وفي الفرق والجمعيات والنوادي المسرحية والتشكيلية والادبية ونوادي الاقليات المحسوبة على الحزب الشيوعي، او التي لا علاقة لها بالبعث، في اقل تقدير . وكان التحالف الجبهوي الذي استمر اكثر من خمس سنوات، رغم هشاشته، يشكل جدارا ليس سميكا تماما، يحول دون ارهاب السلطة العلني والصارخ لهؤلاء، ويمنحهم هامشا صغيرا من الحرية النسبية للابداع.

أن انهيار التحالف بين الحزبين جعل المثقف اليساري أو الديمقراطي أو المستقل مكشوفا وواضحا امام دولة (جبارة)! لديها خبرة أكثر من عشر سنوات من الحكم، وموارد مالية هائلة، ومؤسسات اعلامية و(ثقافية) عملاقة واجهزة امن ومخابرات لا مثيل لها، وعلاقات عربية ودولية واسعة ووطيدة.

وكان على المثقف العراقي هذا ان يختار بين ان يظل داخل الوطن فيستشهد او يسقط او ينزوي ويصمت.. وبين ان يغادر، وبالفعل استشهد الشاعر خليل المعاضيدي والقاص ناصر الجيلاوي وغيرهما.. وقد شجعت قيادة الحزب الشيوعي، التي غادر الكثير من اعضائها الوطن مع بدء الحملة ضد الحزب واثنائها، شجعت المثقفين العراقيين، وبينهم عدد كبير من الكوادر الحزبية، على المغادرة، وساعدت بعضهم لتحقيق ذلك .. ولكن الاغلبية الساحقة من المثقفين العراقيين المحسوبين على الحزب الشيوعي بادروا بجهودهم، اسوة ببقية اعضاء الحزب واصدقائه لايجاد الطرق المختلفة، لانقاذ انفسهم من محنة الموت او السقوط .. أبتداء من المشي عبر صحراء السعودية والكويت (كما جرى للشاعرين عبد الكريم الكاصد ومهدي محمد علي) إلى التسلل عبر كردستان او ايران أو سوريا أو عبر المطارات بجوازات مزورة أو باسماء مختلفة ..إلخ.

ويمكن القول ان ظروفا موضوعية اخرى ساعدت على توسيع هذه الهجرة وتتمثل هذه الظروف في :-

- السفر إلى سوريا عبر الهوية الشخصية، في نفس فترة الحملة سهل خروج العشرات من المثقفين العراقيين، بعد حصول الكثير منهم على هويات مزورة تحمل اسماء اخرى.
- وجود البلدان الاشتراكية التي احتضنت الاف العراقيين الهاربين من سلطة البعث، وبينهم عدد كبير من المثقفين.
- وجود جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية واحتضانها للشيوعيين العراقيين واصدقائهم وبينهم العشرات من المثقفين.
- وجود منظمة التحرير الفلسطينية وفصائل المقاومة المختلفة في لبنان سهل احتضان العديد من المثقفين العراقيين وايجاد فرص العمل والرواتب المجزية لهم.
- توفر فرص العمل في بلدان المغرب العربي والجزائر بشكل خاص لعدد من المثقفين العراقيين كمعلمين ومدرسين واساتذة جامعيين وغيرها من الاختصاصات.
- تشكيل فصائل الانصار في كردستان العراق وانخراط العشرات من المثقفين في صفوف هذه الحركة .

مميزات هذه الهجرة ..

ربما تشكل هجرة المثقفين هذه ظاهرة متميزة تحتاج لدراسة اعمق واشمل من مداخلة سريعة كالتي اقدمها الآن.. فللمرة الاولى في تاريخ الثقافة العراقية يتنادى المثقفون العراقيون لتشكيل رابطة مهنية تضم الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين (ركصفدع) استجابة لنداء وجهه الشاعر سعدي يوسف من منفاه في باريس صيف ١٩٧٩، وقد استجاب لهذا النداء معظم او جميع المثقفين العراقيين الذين كانوا ينتشرون في الكثير من البلدان، اذ تجمع هؤلاء في كل بلد على حدة واسسوا فرعهم الخاص بالرابطة وانتخبوا هيئة ادارية لقيادة الفرع، ثم اعلنوا انهم جزء من الرابطة الام . وكان لاصدار مجلة (البديل) الخاصة بالرابطة اثر كبير في توطيد مكانتها ليس في صفوف المثقفين العراقيين في الخارج فقط، بل بين المثقفين العرب ايضا الذين ساندوا الرابطة واعضاءها ووقفوا إلى جانب نضالهم ضد سلطة القمع والارهاب .

وقد عقدت الرابطة عددا من المؤتمرات ، وانتخبت هيئات قيادية للمركز والفروع كما شكل العديد من فروعها فرقاً مسرحية واخرى موسيقية وتم تنظيم معارض تشكيلية وايام ثقافية مركزية وفرعية، لكن هذا الكيان الثقافي الفاعل لم يلبث ان تراجع وانكفأ فتلكأت مجلة البديل في الصدور ثم توقفت نهائيا بعد ان اصدرت ١٥ عددا. كما نشأت مشاكل تنظيمية في معظم الفروع وفي المركز ايضا وانسحب العديد من المثقفين المرموقين من الرابطة التي لم يبق من فروعها سوى فرع سوريا إلى ما قبل سقوط النظام ..!!

أن اسباب انهيار الرابطة وتشتت المثقفين العراقيين كثيرة ولكن يمكن اجمالها في نوعين من الاسباب:

الجماعات الفنية التشكيلية العراقية

الرؤية الجماعية .. والحرية الفردية

خالد خضير الصالحي

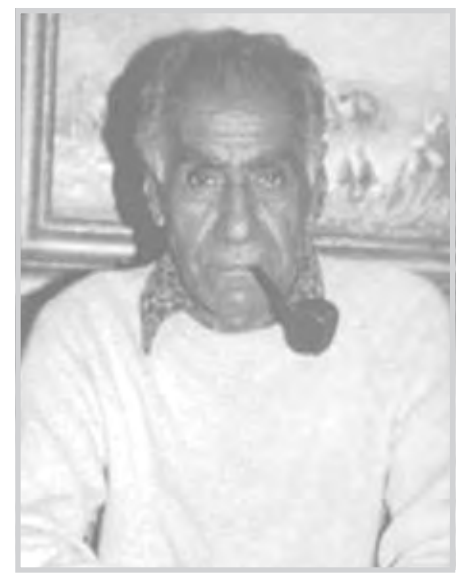

الفنان فائق حسن

الفنان جواد سليم

لقد أدت سيادة نمط من فهم الفن التشكيلي مرتبط بالمعنى ، أدت الى هيمنه متلازمة الإيديولوجية والعناصر الخارج بصرية بما تحتويه من موجهات ولزوميات مسبقة هيمنت على عملية انجاز العمل الفني ، مما أدى الى تراجع حرية الفنان ومن ثم الافتقار الى الإحساس بأهمية (القطيعة) واعتبارها متلازمة للإبداع ، وانحسار التفرد الأسلوبي ، وهو ما وقعت فيه أجيال ما قبل الستينيات والجماعات التي تمخضت عنها بما كانت تهدف إليه حينما كرست ممارسة العمل الفني التشكيلي العراقي في خمسينيات القرن الماضي الى ضرب من الرؤية الجماعية التي تهتم (بالمعنى) في اللوحة ، فكانت ((تمثل رسوخ الوعي الاجتماعي في العمل والفن)) فطرحت جماعة بغداد للفن الحديث ، وهي الجماعة الخمسينية الأكثر نمطية في جماعات الخمسينيات، طرحت رؤية أسلوبية جماعية ضاع فيها جزء ضخم من شخصية المبدعين لصالح لزوميات خارج بصرية. لقد خلقت روح التجمع لدى جيل الخمسينيات ، بفعل إشاعة نمط من التماثل الأسلوبي ، الى (متتابعات شكلية) وهي أمر مهم في ظهور الجماعات الفنية في العراق في الخمسينيات ، وذلك بسبب بساطة المشكلات التي قامت عليها تلك الجماعات وهو التعبير عن الروح المحلية من خلال المزاوجة بين التراث والمعاصرة والاهم من ذلك شيوع (نسخ) التجارب الأخرى التي تلقى قبولاً بمعايير الخمسينيات، بينما بدأت (المتتابعات الشكلية) تختفي حال ظهور الأجيال التي أعقبت خمسينيات القرن الماضي ، حينما طغت الفردانية ، وتمجيد الأسلوب الشخصي الذي يشكل (قطيعة مضافة) مما يجعل من الصعب اكتشاف أنماط من تلك المتتابعات المتماسكة ، كما وجدت في تجارب الخمسينيين . لقد ساد تيار الفردية في الستينيات من خلال عاملين مهمين : عامل داخلي تمثل بخواء الواقع الاجتماعي والاقتصادي ، وأضواء التجربة السياسية القومية العربية ، وهزيمتها في حرب حزيران ، وعامل خارجي تمثل بهيمنة الفلسفة الوجودية والعدمية التي كرست الفردية ، فكانت العملية الفنية تحاول أن تبدأ في كل مرة بداية جديدة ، منقطعة عن المنجز السابق ، ومضافة إليه ، في الوقت ذاته ((فالفنان كان يرضى ان تكون له ذرية تتلوه ، ولكنه يرفض وجود أسلاف له سبقوه)) كما يقول (ا.ل.سمث) .

لم يتميز جيل الخمسينيات الذي رزح تحت هيمنة (التعبير عن الروح المحلية) بالتنوع ولا بالجرأة في استخدام مادة الرسم ، فلم تنتج قضية (التعبير عن الروح المحلية) متتابعة مهمة سوى تجربة جواد سليم وجمهرة من مقلديه ، بينما انتمت التجارب المهمة الأخرى التي ظهرت من قبل أهم الخمسينيين الى حقبة تالية هي الستينيات بفورانها الثقافي والأسلوبي وفردانيتها ، ومن أهمها : تجربة كاظم حيدر التي ((كان حافزها معرض (ملحمة الشهيد) من اجل البحث عن رؤيات جديدة)) فشكلت بداية الردة الكبرى في الستينيات بينما ظل أسلوب فائق حسن وإتباعه اسلوباً لا ينتمي الى الرسم (العراقي) ، بموجب فهم جماعة بغداد للفن الحديث، فهو أسلوب انطباعي استمر بفعل أستاذية فائق حسن في التقنية اللونية نقله أسلوبه هذا الى طلبة في أكاديمية الفنون الجميلة بغداد كجزء من متطلبات الدراسة الأكاديمية ، بينما جاءت المتتابعة (الأخيرة) عندما أسس مرتكزاتها أربعة من الرسامين الأكاديميين : محمد عارف ، وماهود احمد وفيصل لعيبي ، وبدرجة طفيفة عفيفة لعيبي ، و حاول تطويع قواعد الفن الأكاديمي للروح المحلية . وحالما انتهت متتابعة جواد سليم بوفاته المبكرة والتي جاءت بوقت مهم بالنسبة للتطور اللاحق للفن التشكيلي العراقي لتفتح صفحة جديدة حينما نهض بمهمة التأسيس (الجديد) فنانون متفردون لا مقلدين لهم ، وهو ما كان يفرضه الوضع في الستينيات، والذي لم يعد يحتمل تقليد تجربة كارزمية تحت أية ذريعة ، فكان شاكر حسن آل سعيد ابرز منظري جيل الخمسينيات قد انتقلت على عقبيه بتأكيده ان ((العمل الفني يظل بالأساس فردياً)) ويمثل ((في الأصل استقلال الفنان الشخصي في التعبير عن رؤيته الخاصة به))، ووصف أهداف الجماعات الفنية في الستينيات ((البحث عن التقنية والأسلوب المعاصر في العمل الفني)) و((سبب الظهور في السابق سبباً لتقديم رؤية ما)) ، كان نزوع الفنان الخمسيني يتقبل المسبقات القبلية بينما كان الفنان الستيني مندفعاً إلى التقاطع مع كل محاولة للحد من حريته فهو يطمح إلى البدء من جديد في كل مرة يواجه فيها اللوحة البيضاء .

إن ظهور جماعات الستينيات، وأهمها جماعة المجددين ((تمثل ولادة الفكر التقني والرؤيوي الذاتي المعاصر)) وصار المجدد يهدف إلى التعبير عن حريته في ممارسة التجربة الذاتية باتجاه التحول الثوري لجيل الستينيات وهو ((فهم العمل الفني ، وأي عمل فني ، من خلال (بنية) نفسها)) ، وقد وصف احد رسامي الستينيات في البصرة ، هدف الجماعات الستينيه ، وأهمها (المجددون): (يجعل الفن العراقي أكثر صلة بالتكنولوجيا وأكثر تعبيراً عن معنى الحرية والخلاص)).

حالات انسانية عراقية في سدني

سدني/ خاص بالمدى الثقافي

افتتح في غاليري (MLC) في وسط سدني المعرض الشخصي الجديد للفنان العراقي جسام خضر بحضور نخبة من الفنانين والمثقفين العراقيين والأستراليين.

والفنان جسام خضر هو أحد أبرز الرسامين العراقيين من جيل الثمانينيات، وكان شارك في عدد كبير من المعارض الجماعية العراقية للفترة من ١٩٨٤ ولغاية العام ١٩٩٤ وهو عام مغادرته العراق متوجهاً إلى ليبيا، ومن ثم العاصمة الأردنية عمان والتي أقام فيها لسنوات حيث أنجز هناك معرضين شخصيين الأول في قاعة الأندى والثاني في غاليري عالية بالإضافة إلى بضع مشاركات جماعية قبل أن يشد الرحال إلى أستراليا.

وفي أستراليا استطاع جسام خضر أن يشارك في عدد من المعارض الجماعية التي جمعته برسامين عراقيين وأستراليين، ومعرض(حالات انسانية)هو معرضه الشخصي الأول الذي يقيمه في سدني.

ضم معرضه الجديد عشرين لوحة مختلفة الأحجام مستخدماً فيها الأكريلك على الكانفس وصورت حالات انسانية كان الجسد علامتها الأولى.

وفي افتتاح المعرض قال الفنان جون تشيز مان مدير المركز الفني في بلاك تاون في معرض تقديمه للفنان: إنها ولا شك إضافة مميزة إلى المشهد التشكيلي في أستراليا. إن ألوان جسام وتكويناته تسعى إلى ربط القصص والأماكن والصور الشرق أوسطية بالسياق الأسترالي العام، وإن اللذة التي تحققها رؤية أعماله تعكس علاقة العراقيين بفن التصوير الذي يعود إلى عصور سحيقة..

وبعد هذه الكلمة قدم القاص والمترجم العراقي حسن ناصر كلمة بالانجليزية جاء فيها: لا يقدم الفنان جسام خضر مجرد محاكاة للرموز والأفكار المنداثية ولا يريد أن يستثمر هذه الرموز لتكريس حسه بالهوية، بل هو يعيد تركيب تلك المفردات بمنظار الفن الحديث. فاستخدامه الجسد البشري على سبيل المثال نابع من ايمانه بأن هذا الجسد هو رمز الحياة وهو بهذا يعكس الفكرة المنداثية التي تقدس الحياة وتبدأ الصلاة بها، لكنه أيضاً يعيد تشكيل هذا الرمز بلونه الوردي الحي في فضاء بصري يستمد جمالياته من الفن الحديث.

جدير بالذكر أن الفنان جسام خضر كان نال جائزة الواسطي الأولى في العام ١٩٨٩ في بغداد، وله مقتنيات فنية في دول مختلفة، و عمل مدرساً للرسم في أكاديمية الفنون الجميلة ببغداد، وفي ليبيا أيضاً، وهو يقيم في سدني منذ سنوات.